النظرية البنائية الوظيفية

1- مقدمة:

تعد النظرية الوظيفية واحدة من أهم النظريات التي سادت في المراحل السابقة، وفسرت المجتمع من مختلف جوانبه كما طورت نفسها مع تطور المجتمع، ويعود الفضل في ظهور الوظيفية إلى المدرسة الوضعية التي استخدمت مناهج العلوم الطبيعية لمقاربة الظواهر الاجتماعية وإخضاعها إلى التجريب والقياس لاستخلاص قوانين ومسلمات من شأنها تفسير السلوك الإنساني.

تستمد هذه النظرية أصولها الفكرية العامة من آراء مجموعة كبيرة من علماء الاجتماع التقليدين والمعاصرين الذين ظهروا على وجه الخصوص في المجتمعات الغربية الرأسمالية والتي تركز بصورة عامة على أهمية تحليل البناءات والنظم الاجتماعية ومعرفة دورها الوظيفي وتوجهها من أجل الحفاظ على النظام العام واستمرارية تطوره وتحديثه في نفس الوقت.

وهذا ما تمثل في أفكار رواد علم الاجتماع الغربيين من أمثال أوجست كونت وايميل دوركايم وهربرت سبنسر وأيضا آراء العديد من علماء الاجتماع الأمريكيين المعاصرين أمثال تالكوت بارسونز وروبرت ميرتون وغيرهم من رواد الجيل الثاني من علماء الاجتماع الذين امتدت آراؤهم حتى نهاية السبعينات من القرن العشرين.

اهتمت الوظيفية في بداياتها الأولى بتحليل البنيات المشكلة للمجتمع خاصة الأسر والجماعات ثم مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى وصولا إلى تسليط الضوء على وسائل الإعلام والاتصال وتفسير دورها ووظيفتها في الحياة الاجتماعية.

2- مفهوم البنائية الوظيفية:

وتعني البحوث والدراسات التي يتمحور اهتمامها حول الشكل أو البناء أو الوحدة التي تشكل المجتمع، وأيضا تهتم بالوظائف التي تؤديها الوحدة في إطار البناء العام للوحدات أو البناء الكلي، وبمعنى آخر فإن البنائية الوظيفية تركز على الوظائف والأدوار التي تقوم بها الوحدات المكونة للكل.

3- مفاهيم مرتبطة بالنظرية الوظيفية:

اهتم أصحاب هذه النظرية باستخدام وتطوير عديد المفاهيم الخاصة على غرار النسق، البناء الاجتماعي، الوظيفة، البدائل الوظيفية، الخلل الوظيفي، التوازن الاجتماعي ...وغيرها فلو نركز على هذه المفاهيم سنجد أنها ايجابية الطرح لأن مدلولها العام وظيفي، كما أنها مخالفة تماما لمفاهيم الماركسيين التي تركز على الصراع والثورة وحتمية التغيير وسنتعرض فيما يلي لكل من مفاهيم هذه النظرية.

أولا النسق الاجتماعي: يعد النسق أهم مفهوم ركزت عليه النظرية البنائية الوظيفية حيث ينظر تالكوت بارسونز في تحليلاته إلى المجتمع على أنه: بناء اجتماعي يتكون من الأنساق الفرعية المتبادلة وظيفيا مثل النسق الاقتصادي والسياسي والديني ....، كما حاول بارسونز وغيره من رواد البنائية الوظيفية من أمثال روبرت ميرتون عرض أهم العوامل والمتطلبات الوظيفية التي تساهم في عملية استقرار النسق الاجتماعي واستمرار بقائه.

ثانيا البناء الاجتماعي: يشير مصطلح بناء إلى الطريقة التي تنظم بها الأنشطة المتكررة في المجتمع، والواقع أن السلوك الأسري والنشاط الاقتصادي، والنشاط السياسي وغيرها من أشكال الأنشطة المجتمعية تعد على درجة عالية من التنظيم من وجهة نظر سلوكية.

فكل الممارسات الاجتماعية السائدة هي عبارة عن بناءات تساهم في حركية المجتمع وتطوره، وتتضامن مع بعضها البعض لدعم الاستقرار الاجتماعي، لأن لها وظائف تؤديها في السياق الاجتماعي الذي تنشط فيه.

ثالثا الوظيفة : تشير الوظيفة إلى دور كل عنصر في النظام الاجتماعي والوظيفة في نظر البنائية الوظيفية تدل على وظيفة الجزء بالنسبة للكل بمعنى ما تقوم به أجزاء وعناصر النسق من أدوار تساهم في استقرار أو توازن المجتمع وعموما فإن مفهوم الوظيفة قد استعاره علماء الاجتماع من علم الأحياء الذي يدرس وظيفة كل عضو في الكائن الحي ودوره في بقاء هذا الكائن واستمراره، فكذلك الوظيفيون شبهوا المجتمع بالكائن العضوي أو الحي.

رابعا البدائل الوظيفية: ظهر هذا المفهوم وارتبط بالنظرية البنائية الوظيفية في مرحلتها الثانية التي قادها روبرت ميرتون فهو الذي وضع هذا المفهوم وطوره، ويزعم الوظيفيون أن لكل جزء وعنصر وظيفته الخاصة به، غبر أن الانتقادات التي تعرضت لها الوظيفية خاصة في النقطة الأساسية لها والمتمثلة في وظيفية الأجزاء أو العناصر هي التي جعلت ميرتون يتفطن لهذه النقطة ويحاول تصحيحها لذلك اقترح مفهوم البدائل الوظيفية لتغطية عجز بعض الأجزاء عن آداء وظائفها، إذ يفترض أنه في حالة إصابة أي جزء أو عنصر من عناصر النظام الاجتماعي وعدم قيامه بوظيفته المنوطة به فإن باقي الأجزاء الأخرى ستعيد نشاط هذا الجزء وتؤدي وظيفته حتى لا يتأثر النظام الاجتماعي بذلك.

خامسا الخلل الوظيفي: يقصد بالخلل الوظيفي من الناحية الاجتماعية كل ما يصيب المجتمع من مظاهر القلق والاضطراب والتناقض في العلاقات الاجتماعية بين أعضائه سواء أكان مجتمعا صغيرا كالأسرة أم كبيرا كالأمة أو أشمل كالمجتمع الدولي وتنجم هذه الظاهرة عن تقدم بعض وحدات المجتمع وتخلف بعضها الآخر ثقافيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا.

لقد انطلق بعض رواد البنائية الوظيفية على غرار مالينوفسكي من فرضية مفادها أن كل العناصر الثقافية والاجتماعية تؤدي وظائف ايجابية داخل النسق، غير أن ميرتون رأى عكس ذلك، فالعناصر في نظره لا يمكن أن تؤدي دائما وظائف ايجابية، فقد تعجز في بعض الأحيان عن أداء وظيفتها وهو ما أسماه بالخلل الوظيفي.

سادسا التوازن الاجتماعي: إن مفهوم التوازن من أهم المفاهيم التي جاءت بها النظرية البنائية الوظيفية وركزت عليه في تحليلاتها لمختلف الظواهر على اعتبار أن الأجزاء في قيامها بوظائفها فإنه تسهم في بناء وتوازن النسق الاجتماعي واستقراره، لذلك فإن غاية هذه النظرية هو أن قيام كل عنصر داخل النظام الاجتماعي بوظيفته يساهم في استقرار وتوازن المجتمع.

ويفسر الوظيفيون على غرار هربرت سبنسر وبارسونز وغيرهم التوازن الاجتماعي من منظور بيولوجي في تشبيههم المجتمع بالكائن الحي، فنظرية المجتمع التي صاغها سبينسر كانت عضوانية الطابع تماما فبعد أن عرف المجتمع بأنه نظام من الوظائف، حلل بشكل عميق المنظومة الاجتماعية بمفتاح نمو وبنيات ووظائف وأنظمة أعضاء مطورا تشابها معقدا بين المجتمع وأعضاء الجسم.

4- ***جذور النظرية البنائية الوظيفية:***

فكرة التنظيم والبناء كمصدر لاستقرار المجتمع لم تكن فكرة جديدة، وإنما تجلت ملامحها الأولى مع أفلاطون وجمهوريته المثالية، أين حاول أن يماثل بين المجتمع والكائن العضوي بما يمثل كلاهما نظاما مركبا من أجزاء تتفاعل فيما بينها لتحقيق التوازن الاجتماعي العام وأيضا في المجتمع المثالي الذي صفه أفلاطون، تؤدي كل فئة من المشاركين في البناء الاجتماعي أشكالا من النشاط تساهم في تحقيق التوافق الاجتماعي.

جذور النظرية أيضا يمكن ربطها بالمفكر ابن خلدون الذي استخدم المنهج التاريخي الاستقرائي لتحليل البنية الاجتماعية للمجتمع العربي الإسلامي القديم فصنفها إلى بنية بدوية وحضرية.

وهو الأمر الذي حذا حذوه المفكر أوجست كونت الذي استخدم المنهج التاريخي الوصفي لتحليل جوانب البناء الاجتماعي للمجتمع الفرنسي معتدا على فكرة التماثل مع الكائن الحي كفكرة مركزية في صياغته لمفهوم المجتمع.

فكرة النسق الاجتماعي أيضا تمتد جذورها إلى كتابات مونتيسيكيو عندما تحدث عن القانون وعلاقته بالتركيب السياسي والاقتصادي والدين والمناخ وحجم السكان والعادات والتقاليد وغيرها مما يشكل في جوهره فكرة البناء الاجتماعي.

5- ***أفكار النظرية:***

1- بناء المجتمع هو مصدر استقراره، ومعنى ذلك أن المجتمع عبارة عن نظام من أجزاء مترابطة في توازن ديناميكي، يقوم كل جزء بانجاز أنشطة ووظائف تساهم في تحقيق التناسق الاجتماعي العام.

2- وفق هذه النظرية فتوقع أن الجمهور يبحث في وسائل الإعلام دائما عما يسبع رغباته وعما يساعده على إيجاد حلول لمشاكله النفسية والاجتماعية ويشبع خاصة حاجاته إلى الإعلام والترفيه والتربية.

3- تقوم هذه النظرية من منطلق أنه في أي مجتمع توجد عوامل أو قوى اجتماعية تتفاعل بطرق محددة ومميزة لإنشاء نظام إعلامي قوي، وفي هذا الصدد يقول هيربرت أن النظم الإعلامية تقدم وظائف على النحو التالي: الإعلام والتحليل والتفسير والتعليم والتنشئة الاجتماعية والسياسية والإقناع والعلاقات العامة والترويج والإعلان والترفيه والفنون وهذه الوظائف التي تقوم بها النظم الإعلامية تقوم بدورها في تغيير المجتمع الذي قام بوضعها.

6- ***أسس النظرية الوظيفية في علوم الإعلام والاتصال:***

-قام الباحث هارولد لاسويل سنة 1948 بوضع ثلاث وظائف أساسية لوسائل الإعلام وهي:

- مراقبة البيئة: أي بمعنى الكشف عما يمكن أن يهدد المجتمع أو ما يمكن أن يستفيد منه.
- الربط بين مختلف مكونات المجتمع المنفردة فيما بينها.
- توصيل الإرث الاجتماعي والثقافي من جيل إلى جيل.

-إسهامات روبرت ميرتون: ساهم روبرت ميرتون في إرساء قواعد الاتجاه الوظيفي وهذا بقيامه بدراسة تحت عنوان(الوظائف الظاهرة والوظائف المستترة) وخلصت إلى ما يلي:

- المجتمع نظام متكامل، يتكون من أجزاء مترابطة فيما بينها، يفترض أنها تؤدي وظائف لأجل استقرار النظام ككل وبقائه.
- البناء الاجتماعي الذي يتشكل منه المجتمع، عبارة عن مجموعة أنظمة مترابطة بعضها ببعض ومتكاملة في ارتباطاتها ومتكافئة في وظائفها.
- مثل هذا المجتمع يميل بشكل طبيعي نحو حالة من التوازن الديناميكي.
- جميع الأنشطة المتكررة في المجتمع تساهم في استقراره بمعنى أن كل الأشكال القائمة من النماذج، تلعب دورا في الحفاظ على استقرار النظام.
- بعض الأنشطة المتماثلة والمتكررة في المجتمع لا غنى عنها على الأقل في استمرار وجوده.